

البعد الأسطوري للعدددين " ثلاثة "او " سبعة " في التراث الشعبي الجزائري

أوشاطر مصطفى :

جامعة تلمسان

، الأعداد و سيلة من أهم الوسائل التي يستعين بها الإنسان في حياته ، و تدخل
مكونا أساسيا في كثير من تشكيلاته و تعابيره الجاهزة اليومية .

و ما تجدر الإشارة إليه هو أن هناك بعض الأعداد قد أعطيت قوى غامضة عبر
التاريخ لما لها من عمق تراثي و أسطوري ، و منها على وجه الخصوص الأعداد : (ثلاثة ،
وسبعة) ، و هما عددان يتكرر ورودهما في التراث الشعبي الجزائري تكرارا ملفتا للانتباه ،
فما هي دلالة تكرار هذين العدددين ؟ سؤال يدفعنا إلى القول بعمق التراث الشعبي الجزائري
من جهة و من جهة أخرى يدلنا على أهمية دراسة التراث الشعبي الجزائري في البحث
التاريخي الاجتماعي .

لذلك سأتناول ورود هذين العدددين في التراث الشعبي الجزائري كنموذج من جهة
و كمحاولة لتفسير دلالة هذا التكرار من جهة أخرى .

أولا : العدد "ثلاثة" في التراث الشعبي الجزائري:

المستقرئ للتراث الشعبي الجزائري يجده مليئا بتكرار هذا العدد تكرارا ملفتا
للانتباه و بخاصة في الأمثال و الحكايات الشعبية .

تقول الأمثال الشعبية "الثلاثة ثابتة " ، أي أنها ستصيب ، ستصيب تغييرا ، سيكون هناك
أمر مختلف عما سبق .

العدد ثلاثة يجلب النصر و النجاح ، و على الإنسان أن يجرب حظه ثلاث مرات ،
إذ يقولون : " شرع ربي ثلاث " ، أي لابد من القيام بالمحاولة ثلاث مرات .

و من التعابير المسكوكة في اللغة العامية : " ناداه ثلاثا " - و " نذرت ثلاثة أيام
صوما " ... و " الطلاق الثابت بالثلاث " .

و من الظواهر المعنوية البارزة في الحكايات الشعبية أن يكون عدد الأبناء ثلاثة ،
تدرج أعمارهم من الأصغر إلى الأوسط إلى الأكبر ، و لا يكاد الإنسان في بادئ الأمر
يدرك مغزى هذا العدد ، بخاصة حين يتبين أن الدور الذي يسند في الحكاية إلى الابن الأكبر
هو نفسه ما يقوم به الأوسط ، فالحكاية تبرز موقفين إنسانيين ، و تستخلص المعنى النهائي
لها من التعارض بين هذين الموقفين ، موقف الابنين الأكبر و الأوسط ، و موقف الابن
الأصغر ، و من ثم يبدو موقف الأوسط كأنه تكرر لا مبرر له .

و كما يشير العدد ثلاثة في الحكايات الشعبية و الخرافية إلى الشخصيات ، يشير
أيضا إلى الأفعال ، فالفعل يتكرر ثلاث مرات ، ففي الأول يخفق الابن الأكبر ، و في المرة
الثانية تتكرر النتيجة عند الابن الأوسط ، و إذا وصلنا إلى الدور الذي يقوم به الابن الأصغر
تتحدد النتيجة بقدرته على فعل الشيء .

كما يشير العدد ثلاثة إلى الحوادث أيضا ، فالقلعة المسحورة ينبغي أن تحرس ثلاث
ليال متوالية ، و طالب الزواج يجب أن يجيب على ثلاثة أسئلة أو يحل ثلاثة ألغاز ، أو يقوم
بثلاثة أعمال ، و المسافر المستطلع يقابل ثلاثة رجال متقدمين في السن فيزودونه بالمعلومات
، و قاتل المارد يصرع ثلاثة مردة ، واحدا بعد واحد ، و الأمير العائد يواجه ثلاثة أخطار
ينبغي لخادمه المخلص أن يقضي عليها . كما يتكرر الفعل الزمني في الأسلوب الشفوي ثلاث
مرات : ففي كثير من الحكايات تتكرر عبارة " ظل يمشي و يمشي و يمشي " ثلاث مرات .

يقول ألكسندر هجرني كراب : " ثلاثة أعوام ، و ثلاثة شهور ، و ثلاثة أيام ،
فترات زمنية مفضلة في حكايات الجان ، و كذلك شأن سنة ، و يوم " (1) .

ثم يضيف قائلا : " و يرتبط بالعدد ثلاثة التكثيف التدريجي في الأحداث ، التي يتركز ثقلها في الحدث الثالث ، فبين المردة الثلاثة ، الذين يجب أن يهزموا ، ينبغي أن يكون المارد الثالث أشدهم خطورة ، و ثالث غابة بين غابات المعادن التي يخترقها البطل أو البطلة ، تكون أثنى وأغلاها ، فهي من ذهب ، على حين أن الغابتين الأخريين تكونان من نحاس ثم من فضة " (2) . فما سبب هذا التكرار الثلاثي للقيام بعمل ما ؟

إن شيوع تكرار العدد ثلاثة في الأدب الشعبي بصفة عامة ، أدى بالباحث الألماني "أكسل أولرباك " إلى اعتباره أحد القوانين الستة التي تكشف عن بيولوجية القص الشعبي كما يقول الباحثون ، و يعرف بقانون الثلاثة ، و هو يرتبط بقانون التكرار من حيث أن الفعل يتكرر ثلاث مرات .

يقول صاحب هذا القانون إنه ربما لم يكن هناك ما يميز الأدب الشعبي عن الأدب الذاتي تميزا جادا مثل هذا القانون (3) .

و من هذا المنظور فإن للعدد ثلاثة أهمية بالغة ، و كما تقول نبيلة إبراهيم يكسب الحكايات الخرافية سرها ، فإذا تساءلنا عن سبب هذا فإننا نقول : إن العدد واحد يدل على الشيء الذي لم يتطور بعد ، و العدد إثني الذي يساوي العدد واحد مزدوجا ، يرمز إلى التضاد : النور و الظلمة ، و السماء و الأرض ، و الليل و النهار ، و لكنه لا يدل على النهاية و الاكتمال . و هو في ذلك يشبه الخط فاللانهاية ، و يظل مع ذلك محصورا بين نقطتين . أما العدد ثلاثة فهو يعطي للشكل سحره و اكتماله . فالمثلث مثلاً شكل هندسي مكتمل عندما يصل بين ثلاث نقاط ... (4) .

إن هذا التفسير الذي توصل إليه الدارسون في الأدب الشعبي ، هو إلى حد ما تفسير أدبي و الظاهر أنه لا يفي بالغرض و يبقى السؤال مطروحا عن سر هذا التكرار ، وهو ما تجيبنا عنه الدراسات الأنثربولوجية و الفولكلورية .

إن تفسير العدد ثلاثة من منظور هذه الدراسات ، هو رمز لظهور حل ، و للبدء بحياة جديدة .

إن هذا العدد كما يقول علي زيعور هو : " تعبير عن ظهور فكرة ، و بزوغ إرادة في التغيير ، و في الاتجاه الأرفع نحو المستقبل ، و في التجدد و الانبعاث " (5)

و من الشواهد التي تدل على أن العدد ثلاثة هو رمز للانبعاث و التجدد ، يقول : "... و الرقم ثلاثة رمز للجديد ، للطفل عند اجتماع اثنين من جنسين ، ثم إنه أساسي في اللغة العربية ، و في التراث العربي ، و لولا ثلاث هن من لذة الفتى ، و التثليث في الجاهلية معروف ، و ثالثة الأثافي تنبئ عن الكمال و الاتقان ، و ثالثة الطلاق نهايته و قمته و خالقة حال جديد " (6) .

و لو تتبعنا ظهورات هذا العدد في تراث الشعوب لوجدنا المعنى نفسه يتكرر في الملاحم و الأساطير ، ، فلقد جاء " في الذهنية السامية عموما : يقوم أدون (أدونيس) في اليوم الثالث من الموت ، و مثله الكثير من الآلهة تعود في اليوم الثالث إلى الحياة (و عندها تجري الاحتفالات بعودة الإله للحياة : إباحية مطلقة ، عربدة ، رقص ، إلخ ... و النبي يونس يتجدد في اليوم الثالث ، أي يخرج من بطن الحوت ، و هي الإشارة التي يستشهد بها على قيامة المسيح في اليوم الثالث ، أي بعثه من الموت ... " (7)

و قد نجد المصري القديم قد قسم الفصول إلى ثلاثة ، حيث ربطها بالدورة الزراعية (فيضان ، زرع ، حصاد) . إشارة إلى أن الطبيعة تتقل كل ثلاثة شهور إلى جديد ، كما أن دورة الحياة ثلاث هي (ولادة ، حياة ، موت) ، و الكائنات الحية على الأرض التي تخضع لدور الولادة و التجدد ثلاث و هي : (الإنسان و الحيوان و النبات) ، و أغلفة الأرض ثلاثة : (يابسة و ماء و هواء) ، و في هذه الأمثلة كل المعطيات التي تدل على حصول الانبعاث أو الولادة الجديدة .

و إذا كان هذا التفسير يفي بالغرض إلى حد ما ، إلا أنه يبقى تفسيراً ظاهرياً و لا يكشف لنا عن البعد الأسطوري لهذا العدد و هذا ما سنتعرف عليه و لكن بعد التطرق إلى العدد سبعة في التراث الشعبي الجزائري .

ثانيا : العدد " سبعة " في التراث الشعبي الجزائري :

على غرار العدد ثلاثة ، فإن التراث الشعبي الجزائري زاخر كذلك بالأقوال والحكايات التي يرد فيها ذكر العدد سبعة ، يقولون في الأمثال : "إذا كان ولدك بخير ، ضعه تحت سبعة أقفال " ، و هي إشارة ضمنية إلى أهمية التنشئة الاجتماعية و ما تتطلبه من حرص و عناية فالعرف الجاري هو أنه : عندما يبلغ الطفل سبع سنوات يخضع لعناية الأسرة . و نثر في العديد من الحكايات الخرافية و الشعبية على العدد سبعة منها هذه الحكاية التي تروي قصة الفتاة التي تزوجت من الغول و عندما يذهب بها إلى داره يسمح لها بالدخول إلى ستة غرف و يمنعها من دخول الغرفة السابعة . و هذا مقطع منها : " قال الغراب لأم الفتاة : تزوج الغول ابنتك و هي تسكن حاليا في الغابة ، تحيط بها سبعة أسوار من الحديد و سبعة أخرى من الخشب ، و عليك أن ترسلي أبناءك لإنقاذها ... بدأت الأم تنسج برنوسا من الحرير ، فدخل أحد أبنائها السبعة و قال لها : لمن تنسجي البرنوس يا أمي ؟ فقالت للذي يجتاز سبعة أسوار من الحديد و سبعة أخرى من الخشب ... "

و في الدراسة التي قام بها عبد الملك مرتاض : " عناصر التراث الشعبي في اللاز " كشف شغف الجزائريين في استعمال هذا العدد وهذا قوله : " و في الأساطير الشعبية لا نجد أو لا نكاد نجد إلا هذا ، فللغول التي حاربها علي ابن أبي طالب سبعة رؤوس ، و الغول خطافة العرائس لها سبعة رؤوس أيضا و نحو ذلك نجده في السحر و الشعوذة ، حيث أن السحرة يولعون بإبلاعا شديدا بهذا العدد السحري الفلكلوري الديني جميعا ، فتراهم يستظهرون به في عزائمهم ، و طقوسهم المختلفة فالمسحور يخطو فوق مجمر البخور سبع

مرات لكي يبطل السحر المسلط عليه . و العروس الجميلة المحسودة لا تجيء إلا بعض ذلك
قبيل زفها إلى بعلها : نضحا للعين و التماسا لليمن ، و جلبا للبركة " (8) .

إن ما أورده عبد الملك مرتاض بشأن العدد سبعة في هذا القول لا يختلف عما ورد
ذكره في تراث الشعوب ، فعلى غرار العدد ثلاثة فإن العدد سبعة هو الآخر يكثر وروده في
المأثورات الشعبية و الأساطير و الأديان و الحكايات الخرافية كثرة ملفقة للنظر .

ففي التراث الإسلامي مثلا ، هو عدد السماوات و عدد الأرضين و عدد
الكواكب السيارة كما يشير إلى عدد قراءات القرآن ، و عدد ألوان الطيف ، و أيام
الأسبوع ، و درجات السلم الموسيقي السباعي .

و في التصوف يشير هذا الرقم إلى المراحل السبع المؤدية للتنوير و الإشراق ، وهو
يعبر كذلك عن فكرة الأئمة السبعة في التراث الإسماعيلي الشيعي .

و هناك السبوع للمرأة و الميت و المولود ، و الاستواء على العرش كان في اليوم
السابع ، و دورة الخصب في حلم النبي يوسف سبع سنوات عجاف يتبعهن سبع سمان .
و في القرآن الكريم: "كمثل حبة أنبت سبع سنابل" و سورة الفاتحة سبع آيات دعيت
بالسبع المثاني ...

و في الأحاديث النبوية ، عن أبي هريرة " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا
ظله . إمام عادل و شاب نشأ في عبادة الله عز و جل ، و رجل معلق قلبه بالمساجد ورجلان
تحابا في الله اجتمعا علىه و تفرقا عليه ، و رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني
أخاف الله ، و رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، و رجل ذكر
الله خاليا ففاضت عيناه " .

و يشير هذا العدد في التراث البوذي أيضا إلى السنوات السبع التي قضاه بوذا قبل
أن يصل إلى الإشراق ، كما أنه اليوم الذي أحرق فيه جسده ، و تم تقسيم رفاته على أمراء

الأقاليم بعد نزاعهم عليه ، و بعد أن ضل جسده مكشوفاً في نعش لمدة ستة أيام . كذلك يشير هذا العدد في التراث البوذي إلى الخطوات السبع التي خطاها بوذا ناحية اليسار بعد ولادته ، فنبتت زهرات اللوتس في كل مكان (9) .

و في أساطير العرب كما جاء في كتاب محمد عبد المعين خان قولهم : " إن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات و الأرض ، خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ، ثم نظر إليها نظرة هيبّة فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء فعلى و ارتفع منه زبد ودخان و بخار ، و أَرعد من خشية الله . فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة ... " (10).

و بعدما نترك قصة خلق السموات و الأرض هذه المختلطة بنظريات المذاهب المختلفة نجد: " ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكاً فهبط تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه و إحدى يديه في المشرق و الأخرى في المغرب باسطين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها ، فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن ، و أربعون ألف قائمة ، و جعل قرار قدميه على سنامه فلم تستقر قدماه ، فأحدر الله ياقوته خضراء من أعلى درجات الفردوس ، غلظها مسيرة خمسمائة عام ، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه ، فاستقرت عليها قدماه ، و قرون ذلك الثور خارجة من أقطار هذه الأرض و هي كالحسكة تحت العرش . و منخر ذلك الثور في البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفساً ، فإذا تنفس مد البحر ، و إذا رد نفسه جزر . و لم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله صخرة خضراء ، غلظها كغلظ سبع سموات و سبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها ... فلم يكن للصخرة مستقر ، فخلق الله تعالى نونا ، وهو الحوت العظيم اسمه لوتيا و كنيته بلهوت ، و لقبه بموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال ، قال و الحوت على البحر " (11) .

و في التراث الأسطوري المصري القديم ، يشير هذا العدد إلى البقرات السبع
السمان التي تقدم للإنسان عند دخوله الجنة ، و هي تمثل الإله حتحور ، و ترمز إلى الحور
التي تخدم الإنسان في الجنة (12) .

و في الحكايات الخرافية و الأساطير بصفة عامة نجد الأفعى بسبعة رؤوس ،
و البطل له سبعة إخوة و أعياد أدونيس تستمر سبعة أيام ، و العرب البائدة سبع قبائل ،
و اتخذ لقمان سبعة أنسر... كل هذا على سبيل المثال لا الحصر .

و هو لغويا : سبعت سؤرها ، أي تصدقت به. و سبعهم ، أي أخذ سبع ما لهم .

و المولود السباعي ، الذي يولد قبل أوانه (13) .

لقد كان الأقدمون يسمون هذا العدد " بالعدراء " و يقرنونه ببلاس أثينا التي
انبثقت بكامل زينتها من رأس زيوس . ذلك بأن السبعة " ليست مخلوقة " (صورة حية عن
العدد الأول) و " لا خالقة " (لا تدخل في تركيب أي عدد من المجموعة العشرية) على
نحو ما ذكر شاكر عبد الحميد في المقال المنشور بمجلة النقد العربي فصول تحت عنوان : "
الحلم و الكيمياء و الكتابة " (14) .

يتضح لنا من خلال ما سبق بأن العدد سبعة حاضر في كل تراث الشعوب و منه
التراث الشعبي الجزائري و السؤال الذي يطرح هل تكرار هذا العدد سبعة يخضع لتفسير
معين ؟ و هل له بعد أسطوري ؟

استكمالا للتفسيرات السابقة الذكر و التي اهتمت بالعددين ثلاثة و سبعة و التي .
أماطت اللثام عن بعض رموزها و دلالاتها نجد تفسيراً أكثر عمقا يشترك فيه هذان العددان .

إن هذين العددين من منظور البحث الفولكلوري و الأنثروبولوجي لهما جذور في
التاريخ ، يمتد بعدهما إلى البدء ، إلى التكوين الاجتماعي الأول ، حيث الآلهة المؤنثة كانت
أصل الديانة الأولى و الأسطورة . و بالتالي فإن تفسير تكرار ورود هذين العددين في

مختلف تراث الشعوب في زعم هذا الاتجاه من البحث يرتبط ارتباطا وثيقا بأطوار القمر من جهة و بالخصب من جهة أخرى.

و من المحاولات الجادة التي يمكن أن تفسر لنا تكرار هذين العددين ما توصل إليه الباحث السوري فراس السواح في دراسته للغز المرأة الأولى ، الذي أطلق عليه : لغز عشتار (15) .

إن الإجماع التاريخي حول تطور العائلة يحدد أن المجتمع المشاعي الأول توازى مع شكل العائلة الأولى ، حيث السيطرة للأم ، و الزواج غير أحادي . كان ذلك في التجمعات الزراعية قبل حضارة المدنية التي تحتاج لنظام و قانون ، و قبل اكتشاف الكتابة يقول فراس السواح : " لعبت المكانة الاجتماعية للمرأة في تلك العصور دورا كبيرا في رسم التصور الديني و الغيبي الأول و في ولادة الأسطورة الأولى . كانت المرأة بالنسبة لإنسان العصر الباليوليتي موضع حب و رغبة و موضع خوف و رهبة في آن معا ، فمن جسدها تنشأ حياة جديدة ، و من صدرها ينبع حليب الحياة ، و دورتها الشهرية المنتظمة في ثمانية أو تسعة وعشرين يوما تتبع دورة القمر ، و خصبها و ما تفيض به على أطفالها هو خصب الطبيعة التي تهب العشب لقطعان الصيد ، و ثمار الشجر غذاء للبشر و عندما تعلم الإنسان الزراعة وجد في الأرض صنوا للمرأة فهي تحبل بالبذور و تطلق من رحمها الزرع الجديد . لقد كانت المرأة سرا أصغر مرتبطا بسر أكبر ، سر كامن خلف كل التبدلات في الطبيعة والكون، ف وراء كل ذلك أنثى كونية عظيمة ، هي منشأ الأشياء ومردّها ، عنها تصدر الموجودات و إلى رحمها يؤول كل شيء كما صدر " (16).

هذه الأهمية للمرأة المغلقة الأسرار ، توازت مع أهمية القمر ، الذي يشابه المرأة في دورتها الشهرية ، و ما يحيط به من نجوم ، فإنه يمر بمراحل ثلاث : هلال يتزايد يرتبط رسمه مع نجوم سبعة ، بدر في كبد السماء ، تناقص و غياب ، ثلاثة أطوار ، و غياب عن العين المجردة لثلاثة أيام ، يطلع بعدها مجددا .

و هكذا نجد أن الثلاثة و السبعة تقترون بعبادة الأمّ و القمر ، فالأم الأولى المعبودة كانت أما قمرية ، و مصدر تقديس الثلاثة و السبعة هي من تقديس هذه الأم المرتبطة بالقمر (17).

و بناء على ما سبق يمكننا القول بأن تفسير تكرار ورود العددين "ثلاثة و سبعة" في تراث الشعوب عموما و الجزائري خصوصا - من منظور الباحث السوري فراس السواح - يرتبط ارتباطا وثيقا بعبادة الأم الأولى و ما أحيط بها من مفاهيم و تفاسير تصنف اليوم في خانة الأساطير .

و تأسيسا على ما سبق يتضح لنا بأن الحديث عن أسطورة هذين العددين وظهورهما يكاد لا ينتهي ، إنها رمزية ظلت محافظة على قدسيته عبر العصور و لدى أغلب الشعوب رغم تغير المعتقدات .

الهوامش:

- 1- ألكسندر هجري كراب : علم الفلكلور ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكتاب العربي 1967 ، ص 76
- 2- المرجع نفسه ، ص 76
- 3-4 - انظر د. نبيلة إبراهيم : عالية التعبير الشعبي ، مقال منشور بمجلة فصول - الأدب المقارن - ج 2 ، المجلد الثالث ، العدد الرابع ، سبتمبر 1983 ، ص 30
- 5- د. علي زيعور : الكرامة الصوفية و الأسطورة و الحلم ، القطاع اللاواعي في الذات العربية ، ط 4 ، دار الأندلس ، لبنان ، ص 183
- 6- 7- المرجع نفسه ، ص 184
- 8- د. عبد الملك مرتاض : عناصر التراث الشعبي في اللاز / دراسة في المعتقدات و الأمثال الشعبية ، د.م.ج ، الجزائر ص 2
- 9- انظر لطفي الخوري : المعجم الميثولوجي ، مجلة التراث الشعبي / 1 / 1985
- 10- د. محمد عبد المعين خان : الأساطير و الخرافات عند العرب ، دار الحدائق للطباعة و النشر و التوزيع ، ط 2 ، بيروت 1981 ، ص : 159
- 11 - د. محمد عبد المعين خان : المرجع نفسه ص : 159
- 12 - سيد كريم : تفسير الأحلام عند قدماء المصريين ، مقال منشور بمجلة الهلال ، 1975 ، ص 41
- 13- انظر محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس ، ج 21 ، سلسلة التراث العربي ، وزارة الإعلام ، الكويت 1984 ، ص : 171 و ما بعدها .
- 14- شاكر عبد الحميد : الحلم و الكيمياء و الكتابة ، مقال منشور بمجلة فصول ، المجلد السابع ، العددان الأول و الثاني ، أكتوبر 1986 / مارس 1987 ، ص 165 .

15- فراس السواح : لغز عشتار - الألوهة الموثقة و أصل الدين و الأسطورة ، دار علاء الدين ، ط6 ، دمشق 1996 .

16- فراس السواح : المرجع نفسه ، ص 25

17- انظر المرجع نفسه ، ص 64 و ما بعدها .